نـظراتٌ لغويـةٌ في لفظةِ "السبيل" في القرآن الكريم

Linguistic perspectives on the word "sabil" in Al-Qur'an Al-Kareem

أ.م.د. همسات محمد حسن جواد

Assistant Professor,
Dr. Hamasat Muhammad Hassan Jawad

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية

Al-Mustansiriya University-
College of Education

الملخص

كان القرآن الكريم وما زال ينبوع العطاء الدائم الذي لا ينضب، فينهل منه كل محبّ للغة العربية المعطاء؛ لذا حاولت في هذه الدراسة أن اخذ من فيضه، فكانت مشكلة هذا البحث هي: هل للفظة السبيل في القرآن الكريم دلالة معينة يثبتها السياق؟ فتظافرت الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية في تحقيق الإبداع والتأثير في القارئ؛ فبرزت عشر دلالات للفظة السبيل في القرآن الكريم، درستهاعلى وفق المنهج الوصفي التحليلي، فحللت النصوص القرآنية من الجانب الصوتي والنحوي والمعجمي.

الكلمات المفتاحية: السبيل – دلالة – لغة

Abstract

The Noble Qur’an was and still is the fountain of constant and inexhaustible giving, from which every benefactor of the Arabic language draws from it. Therefore, in this study I tried to take from its abundance, so the problem of this research was: Does the word “sabil” in the Holy Qur’an have a specific significance that is proven by the context? The phonetic, grammatical and lexical aspects combined to achieve creativity and influence on the reader; So, ten indications of the word “sabil” emerged in the Noble Qur’an, which I studied according to the descriptive-analytical approach, so I analyzed the Qur’anic texts from the phonetic, grammatical and lexical aspect.

Keywords: the way - semantics - language

المقدمة

كان القرآن الكريم وما زال ينبوع العطاء الدائم الذي لا ينضب، فينهل منه كل محبّ للغة العربية المعطاء؛ لذا حاولت في هذه الدراسة أن أنهل من فيض عطائه الغزير؛ ليكون موضوعا لبحثي، فكانت مشكلة هذا البحث هي: هل للفظة السبيل في القرآن الكريم دلالة معينة يثبتها السياق؟ لذا فالهدف من هذه الدراسة هو إثبات دلالة لفظة السبيل وبيان أثرها في تحديد معنى الآيات، وذلك لسعة دلالتها وتنوعها، فتظافرت الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية في تحقيق الإبداع والتأثير في القارئ؛ لذا فقد استوى البحث على عشر فقرات، على وفق المنهج الوصفي التحليلي، فحللت النصوص القرآنية من الجانب الصوتي والنحوي والمعجمي، واقتصرت دلالة لفظة السبيل على معنى: الجهاد، الحجة، الخلاص، دين الإسلام، الطاعة، القدرة والطاقة، المخرج، المسلك والطريق، المؤاخذة والعقوبة، المنهج والسنّة، مرتبة على وفق الحروف الألفبائية

نـظرةٌ في لفظة السبيـل

لا شكّ أنّ القرآن الكريم هو معجزة نبيّنا الكريم محمّدﷺ، فهو سرّ الفصاحة والبلاغة، وقد تحدّى به ربّ العزّة جميع خلقه على أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك ﴿**قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾﴿الإسراء: ٨٨﴾، ولألفاظ القرآن الكريم دلالتان، أحدهما دلالة مركزية[1] أو معجمية، والأخرى دلالة قرآنية أي هي الدلالة التي يفرضها السياق الذي تطرز فيه تلك الألفاظ. وهناك الكثير الكثير من الألفاظ القرآنية التي تتميز بالتنوع الدلالي، وهذا ما حفزني لاختيار إحدى هذه الألفاظ الكريمة ألا وهي لفظة "السبيل"، للوقوف على دلالتها المعجمية أولا، ودلالتها القرآنية ثانيا، وبيان اللفتات اللغوية المضيئة في الآيات التي وردت فيها، مراعية في ذلك الترتيب الهجائي في إيراد هذه المعاني؛ ليستنير القارئ ويستكشف هذه الجوانب اللغوية.

وردت لفظة "السبيل" في مائة وخمسة وسبعين موضعا من القرآن الكريم، لكنّها جاءت بصيغتها الاسمية فقط، ولم ترد بالصيغة الفعلية مطلقا، كذلك جاء منها المفرد والجمع، وهي من الألفاظ التي تذكّر وتؤنّث ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾﴿الأعراف: ١٤٦﴾ فهنا ذكّر السبيل، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾﴿يوسف: ١٠٨﴾ وهنا أنّثَ السبيل.

(١) ينظر: دلالة الالفاظ، ٢.

السبيل في اللغة:

من "أصل واحد يدل على إرسال شيء من علو إلى سفل، وعلى امتداد شيء. فالأول من قيلك: أسبلتُ السِّتْرَ، وأسبلَتِ السَّحابةُ ماءَها وبمائِها. والسَّبَل: المطر الجَوْد... السّبيل، وهو الطريق، سمِّي بذلك لامتداده"[1]، والسبيل "الطريق وما وَضَح منه، يُذكّر و يُؤنّث"[2].

ويفرق اللغويون بين لفظة السبيل والصراط والطريق بقولهم "إنّ الصراط هو الطريق السهل... والطريق لا يقتضي السهولة، والسبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطريق وعلى ما لا يقع عليه الطريق، تقول سبيل الله وطريق الله وتقول سبيلك أن تفعل كذا ولا تقول طريقك أن تفعل به، ويراد به سبيل ما يقصده فيضاف إلى القاصد ويراد به القصد"[3].

خرجت لفظة "السبيل" في القرآن الكريم لمعاني عدة، وبصيغ مختلفة وهي:

دلالة "السبيل" على الجهاد:

قال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾﴿البقرة:١٩٥﴾ وردت هذه الآية بعد آيات ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَّ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾﴿البقرة:١٩٤﴾ الانفاق في سبيل الله هنا يُقصد به الانفاق في الجهاد[4] بقرينة سياق الآيات السابقة لهذه الآية، وذلك باخراج المال في الاعداد للحرب كصناعة السيوف وتجهيز التموين والحصون وغيرها من

(١) مقاييس اللغة (سبل) ٣/ ١٢٩-١٣٠.
(٢) ينظر: القاموس المحيط (سبل) ٣/ ٣٨٠.
(٣) الفروق اللغوية:٢٤٦.
(٤) مجمع البيان: ٢/ ٢٩.

الاحتياجات.وفي هذه الآية الكريمة ملحظ لغوي لطيف، إذ نجد الشيئ وضدّه فيها، الأمر بالانفاق والنّهي عن البخل في قوله "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" فالالقاء يكون من الأعلى إلى الأسفل أي إلى التهلكة وهي الوقوع بيد العدو، فإذا لم يتم الاستعداد الكامل للحرب وتجهيزها بانفاق المال، فستكون النتيجة هي التهلكة الأكيدة للمؤمنين.

دلالة "السبيل" على الحجة

عبّر القرآن الكريم عن دلالة الحجة في لفظة السبيل بصيغة المصدر بقوله عزّ وجلّ: ﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾﴿ النساء: ١٤١﴾.

فقد نفى ربُّ العزّة أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيلا، أي حجة ودليلا يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾، لكن المفسرين ذكروا لدلالة السبيل في هذه الآية معنيين، أحدهما: أنّه بمعنى النصر والظهور، أي "لن يجعل لليهود على المؤمنين نصرا ولا ظهورا"[1] والآخر أنّه "لن يجعل للكافرين على المؤمنين حجة وإن جاز أن يغلبوهم بالقوة لكن المؤمنين منصورون بالدلالة والحجة"[2].

وعلى أية حال فأن دلالة السبيل واحدة، إذ هي في كلا القولين تدل على الحجة، فالنصر والظهور للمؤمنين لابدّ أن تسانده الحجة والأدلة. ونلحظ هنا مجموعة لطائف لغوية منها تقديم شبه الجملة "على المؤمنين" على المفعول به "سبيلا"؛ لأنّه أراد تخصيص المؤمنين بهذا الحكم لذا وجب التقديم هنا، كما نلاحظ أن "جعل" نصبت

(١) مجمع البيان ٣/ ١٢٨.

(٢) المصدر نفسه.

مفعولا واحدا لأنها هنا بمعنى أوجد، وقد دلّ الفعل المضارع "يجعل" على الزمن المستقبل لأنّه ارتبط بأداة النصب "لن"، التي تفيد نفي وقوع الحدث نفيا مطلقا، أي لن يوجد حجة للكافرين يوم القيامة على المؤمنين أبدا، كذلك من الناحية الصوتية نجد أن لفظة سبيلا تكونت من ثلاثة مقاطع: قصير + متوسط مفتوح + متوسط مفتوح انتهت به، ليعطي للمتلقي راحة نفسية، فلن يجد الكافرون حجة على المؤمنين مهما حاولوا وبذلوا من جهد، فناسب هذا الامتداد والانفتاح بالمقطع المعنى المراد من الآية.

دلالة "السبيل" على الخلاص:

قال تعالى: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ**﴾﴿الشورى: ٤٦﴾.

نجد أنّ "سبيل" نكرة في سياق نفي، فيعم كل سبيل مخلص من الضلال ومن آثاره"[1] فأوّل ما يلاحظ في هاتين الآيتين، هو أنّ لفظة السبيل جاءت بتركيب شرطي، إذ جاء فعل الشرط مضارعا في الآيتين، بينما جاء الجواب في سورة النساء، جملة فعلية منفية بـ"لن" مقترنة بالفاء، فدلّ جواب الشرط على المستقبل؛ لأنّه سبق بـ"لن" الناصبة، أمّا في سورة الشورى، فكان الجواب جملة اسمية منفية ارتبطت بالفاء أيضا، لكنها أفادت معنى التخصيص، وذلك لتقديم المسند إليه "له" على المسند المجرور لفظا بـ(من) لزيادة التوكيد، والمرفوع محلا "من سبيل".

وبنظرة فاحصة إلى لفظة "سبيلا" نجدها قد تكوّنت من ثلاثة مقاطع، قصير + متوسط مفتوح + متوسط مفتوح، فانتهت الكلمة بمقطع مفتوح، ليعطي معنى التهديد بما ينتظر الانسان الضال من حساب يوم القيامة، فالخيال مفتوح ومطلق أمام هذا الضال ليتخيل أنواع العذاب، فناسب هذا الامتداد المفتوح في النطق المعنى المراد من

(١) التحرير والتنوير:٢٥/ ١٣٠.

الآية الكريمة. بينما نجد "سبيل" في سورة الشورى، قد تكوّنت من مقطعين، قصير + طويل مغلق؛ لأنّه مقام حزم وصرامة، فناسب معنى الحزم والجزم المقطعَ المغلق.

دلالة "السبيل" على الدين

ذكر النّص القرآني دلالة السبيل على الدين الإسلامي بصيغة المصدر المضاف، في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾﴿**النساء:١١٥**﴾، فبيّن سبحانه وتعالى أنّه من يخالف الرسول من بعد ما وضح عنده الحق، واتبع غير دين الإسلام الذي هو دين المؤمنين، سيكِله الله إلى من انتصر به ويلزمه دخول جهنم، عقوبة له على مااختاره من الضلالة والخسران.فدلّت لفظة السبيل هنا على الدين الإسلامي[1]؛ لأنّه طريق المؤمنين، وليس لهم طريقا آخر غيره؛ لذا لجأ النص القرآني إلى أسلوب الشرط لإثبات هذا الطريق للمؤمنين، ذلك لأن وقوع جملة الجواب وتحققها، شرط بوقوع جملة الشرط، ونلحظ أنّ الفعل (يشاقق و يتّبع) قد وردا بصيغة المضارع، لكنهما دلّا على الزمن المستقبل؛ لأنّهما وقعا في سياق الشرط، وقد جُزم الفعل (يتّبعْ) بسبب عطفه على فعل الشرط (يشاقق) قبل الإتيان بجواب الشرط، وأرى أن لفظة السبيل انتهت بمقطع قصير لسبب دلالي وآخر نحوي، فالأول هو قصر الدين على المؤمنين فقط، فجاءت مضافة إلى "المؤمنين" وهذه الإضافة هي السبب الثاني.

وكذلك وردت لفظة السبيل بمعنى دين الإسلام في قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً* أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً**﴾﴿**النساء: ١٥٠-١٥١**﴾، عبّر النّص القرآني عن الدين بلفظة السبيل، فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام، وكفروا بعيسى عليه السلام وبرسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. والنّصارى

(١) مجمع البيان: ٣/ ١٥٨.

كذلك آمنوا بعيسى عليه السلام ومن قبله، وكفروا بمحمّد صلى الله عليه وآله. فأراد النّص القرآني أن يبيّن أنّهم كافرون؛ لأنّهم يريدون أن يتخذوا غير دين الإسلام، فيكفرون ببعض ويؤمنون ببعض، فأرادوا اتخاذ دين جديد مبتدع، فيضلّوا به الجهلة على سبيل التبجح والعناد. وهنا انتهت "سبيلا" بمقطع متوسط مفتوح؛ لأنّ هؤلاء الكافرين أرادوا لدينهم الاستمرار والبقاء. وهنا نلاحظ أن دلالة السبيل لم تبتعد عن معناها الأصلي، وهو الطريق والامتداد، فدين الإسلام هو طريق المؤمنين وامتدادهم.

دلالة السبيل على الطاعة

ذكر ربُّ العزّة لفظة السبيل مضافة إلى لفظ الجلالة، دلالة على طاعته وحده وحسن عبادته، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾﴿البقرة:١٩٠﴾.

نزلت هذه الآية في صلح الحديبية[١]، حيث أمر الله تعالى رسوله الكريم بمقاتلة المشركين، لكن أيّ مشركين؟ المشركون الذين يبدأون بمقاتلة المؤمنين؛ وذلك طاعة لله وهذه الطاعة دلّت عليها لفظة السبيل المضافة، وهنا ملحظ دلالي يتمثل بذكر لفظ الجلالة، فلم يقل في سبيله وإنّما قال: في سبيل الله، أي لم يحل إلى ربّ العالمين بالضمير، وذلك للدلالة على أهمية الطاعة لله وحده لا شريك له، فأراد أن يعزز هذا المعنى ويعطيه الأهمية اللائقة به.

كذلك استعمل النّص القرآني فعل الأمر "قاتلوا" بدلالته على الطلب بثلاثة مقاطع صوتية، الأول متوسط مفتوح "قا"، والثاني قصير "تِ"، والثالث طويل "لوا" فكان النّبر على المقطع الثالث من الكلمة؛ ليكون الخطاب موجها إلى كل المؤمنين بدلالة واو الجماعة، فلم يخصص أحدا بالخطاب.

(١) الكشاف: ١/ ٣٩٦.

دلالة "السبيل" على القدرة والطاقة:

وردت لفظة السبيل بدلالتها على القدرة والطاقة والاستطاعة، في قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾﴿آل عمران:٩٧﴾.

أراد ربّ العزّة بيان أهمية الكعبة، وأنّها أول بيت مبارك وضع للعبادة، وأنّه لم يكن قبلها بيت يحج الناس إليه، فقال مَنْ استطاع بقدرته وطاقته أن يحج إليه فليفعل، فالسبيل هنا لم تأت بمعنى الطريق، وإنّما دلت على الاستطاعة[1]، وهذه الاستطاعة فيها أقوال منها أنّها تعني توفير الزاد والراحلة، ومنها أنها تعني توفير نفقة أهله ن وتأمين أمورهم خلال رحلة حجّه[2].

وظاهر معنى الآية أنّه إذا تحققت الاستطاعة وجب الحجّ على المستطيع، فاللام في "لله" تدلّ على أنّ الحجّ لله، و"على" تعطي معنى التكليف، فالحجّ تكليف على النّاس كلِّهم وليس للمسلمين فقط، فالحجّ لله والمنفعة للإنسان، فقوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ تعني من استطاع الوصول إليه طاعة لله، لأنّ الحجّ لله وحده، وفيه ما فيه من المشقة والتعب، لذا من قام به فهو المطيع لربّه.

ونلحظ في هذه الآية الكريمة بعض الملاحظ اللغوية، فلفظة سبيلا مكوّنة من ثلاثة مقاطع، ومنتهية بألف ليدلّ على إطلاق الطاعة وأن طاعة الله ليس لها حدود، وجاء نبرها على المقطع الثاني المتوسط المفتوح، ليعطي هذه الدلالة نفسها، أيّ دلالة امتداد الطاعة لله تعالى.

كذلك دلّ تقديم الخبر في "لله على الناس" على المبتدأ المؤخر "حجّ البيت" على التخصيص وتقوية الحكم في الوقت نفسه.

---

(١) ينظر: مجمع البيان ٢/ ٤٧٨.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٢٤.

دلالة "السبيل" على المخرج:

عبّر النّص القرآني عن هذه الدلالة بقوله تعالى: ﴿**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾﴿الإسراء:٤٨﴾ بصيغة المصدر أيضا، ففي هذه الآية الكريمة خطاب للرسول الكريم محمّدﷺ من الله تعالى، بأنّهم أيّ المشركين كيف مثّلوا لك الأمثال بقولهم هو مجنون، وهو شاعر وهو ساحر "فهم لايقدرون على المخرج ممّا هم فيه من كفرهم بتوقفهم إلى الإيمان به"[١].

وقد ذكرت للفظة السبيل في هذه الآية دلالة أخرى ألا وهي "الحيلة" حيث فُسرت "فلا يستطيعون سبيلا أي حيلة في صدّ الناس عنك"[٢].

والملاحظ أن الحيلة هي أيضا تعطي معنى المخرج، أي يحاولون إيجاد مخرجا بطريقة ما. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾﴿النساء:١٥﴾ أي مخرجا، فهذه الآية نزلت بمن فعلنَ الفاحشة أيّ الزنا من النساء، حيث كانت عقوبتهنّ الحبس في البيت حتى يتوفاهنّ الموت، فقيل أن هذه الآية نسخت بآية الزنا وعقوبتها الجلد أو الجلد والرّجم، وهذا هو السبيل أي المخرج لهنّ.

دلالة "السبيل" على الطريق أو المسلك:

جاءت لفظة السبيل بمعنى الطريق في آيات كثيرة من القرآن الكريم منها: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾﴿الإسراء:٣٢﴾.

نجد أنّ ربّ العزّةﷻ قد نهى عباده عن الزنا وعن أسبابه وأنواعه، فهو من أعظم الذنوب عند الله، لذا عدّه فاحشة، ثم وصفه بأنّه ساء سبيلا، فهو طريق الهلاك، وانتشار الأمراض، فبئس الطريق والمسلك. والدلالة الطريق هنا على سبيل الاستعارة

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٧/ ٤٦٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٩٨.

"والسبيل الطريق وهو مستعار هنا للفعل الذي يلازمه المرء ويكون له دأبًا"[1] فيقول سبحانه وتعالى: لا تقربوا ولم يقل لا تزنوا، وفي هذا حكمة بالغة، لأنّ النّهي عن فعل الزنا هو نهي عن هذا الفعل فقط، وكما هو معروف فإنّن لهذا الفعل مقدمات يجب أن لا نقترب منها، أوّلها النظر للمحرمات ثم التعلق بها ثم الوقوع بالمعصية، لأن مجرّد الاقتراب منها يوقع الإنسان بالمعصية، فاللهﷻ يعلم بالنّفس البشرية الأمّارة بالسوء، لذا قالﷻ لا تقربوا الزنا، فالولوج في طريق الفاحشة نهايته فساد المجتمع وفساد الدين، لذا جاءت لفظة السبيل هنا نكرة "سبيلا " فدلّت على العموم عموم الفاحشة بكل أشكالها وألوانها. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾﴿القصص:٢٢﴾، أيّ أنّ موسىعليه السلام أراد أن يتوجه إلى مدين لكنّه لا يلعم طريقها، فدعا ربّه ليهديه الطريق الصحيح. وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ**﴾﴿العنكبوت:٢٩﴾ أي وتتركون إتيان النساء، وهو الأمر الطبيعي، وتقطعون بذلك طريق بقاء النسل[2]، فهو أيضا يعطي دلالة الطريق؛ لأنّ المعنى طريق بقاء النوع.

دلالة "السبيل" على المؤاخذة والعقوبة:

نلاحظ دلالة المؤاخذة في لفظة السبيل التي جاءت نكرة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾﴿الشورى:٤١﴾، وقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾﴿التوبة:٩١﴾، أي الذين ينتصرون لدينهم وحقوقهم من بعد ظلم الظالم لهم،

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٩٠.

(٢) ينظر: تفسير الميزان ١٣/ ٨٨.

فلا يؤاخذون من أحد ولا يعاقبون ولا يحرجون[1]، لأنّهم لم يبدأوا الناس بالعدوان "والمراد بالسبيل موجب المؤاخذة باللّائمة بين القبائل واللمزِ بالعُدوان والتبعة في الآخرة على الفساد في الأرض بقتل المسالمين، سُمي بذلك سبيلاً على وجه الاستعارة لأنه أشبه الطريقَ في إيصاله إلى المطلوب، وكثر إطلاق ذلك حتى ساوى الحقيقة"[2] فالتنكير في لفظة السبيل في هاتين الآيتين، دلالة على العموم في المؤاخذة، أي إنّهم لا يؤاخذون بأي شكل من الأشكال.

أمّا دلالة العقوبة فنجدها في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾﴿التوبة:٩٣﴾، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾﴿الشورى:٤٢﴾، أي لا عقاب إلا على الأغنياء المتخلفين عن معركة تبوك، والمراد بهم المنافقون في المدينة المنوّرة. فهؤلاء عقوبتهم معروفة لقوله تعالى: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾﴿التوبة:٩٥﴾، وكذلك لا عقاب إلا على عموم الظالمين ومنهم مشركو مكّة[3]، لذا جاءت السبيل معرفة وقد قُصرت بـ"إنما" ليدلّ على حصر العقوبة بهؤلاء.

(١) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٨٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ١١٩.

(٣) ينظر: مجمع البيان ٥/ ٨١.

دلالة "السبيل" على المنهج والسنّة:

وردت لفظة السبيل دالة على معنى المنهج والسنّة، بصيغة اسمية مضافة إلى ياء المتكلم في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾﴿يوسف:١٠٨﴾، أيّ "قل يا محمد هذه سبيلي أيّ: طريقي وسنتي ومنهاجي"[(١)].

ومن الملفت للنظر، هو إضافة ياء المتكلم إلى السبيل، لتدل على حصر السنّة والمنهج بالرسول الأعظم، بمعنى أنّ منهاجه هو الطريق إلى الجنّة، وقد فسرت هذه السبيل بالجملة التي بعدها، "أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني"، فهي دعوة الرسول الأكرم المؤمنين إلى اتباع منهجه وسنّته.

كذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾﴿الأنعام:١٥٣﴾ أيّ لا تتبعوا الضلالات والشبهات، فهي طريق مهلكة تميل بمن يتبعها عن دين الله ومنهجه الذي وصى به ربّ العزّة.

(١) تفسير البغوي ٥/ ٤٦٣.

الخاتمة

بعد هذه النظرات اللغوية في الآيات الكريمة، يمكن القول إنّ الدلالة القرآنية عميقة ومتعددة الأشكال، فنجد في ألفاظ الدلالة المعجمية الأصلية فضلا عن الدلالة التابعة لسياق الآية. ولفظة السبيل -محل الدرس- دلالتها الأصلية هي الطريق، أمّا السبيل في القرآن الكريم فقد خرجت دلالتها إلى عدّة معان بحسب السياق الخاص بالآية الكريمة، مثل دلالة الجهاد ودلالة المنهج والسّنة ودلالة القدرة والطاعة وغيرها كثير من الدلالات مرّت بنا في أثناء البحث.

كذلك بيّن البحث التناسب الصوتي، مع مايحمله القرآن الكريم من أفكار، وذلك من خلال دراسة المقطع الصوتي وما يوضّحه من دلالات بيّنت المعاني المستقاة من النّص.

المصادر

١) التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م) الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤

٢) تفسير البغوي "معالم التنزيل" ابو محمد الحسين البغوي (ت٥١٧هـ) تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة، سليمان مسلم، دار طيبة للنشر والتوزيع-الرياض ١٤٠٩هـ

٣) الجامع لاحكام القران والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لابو عبد الله محمد القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق:د.عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٦م

٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان

٥) دلالة الالفاظ، د.إبراهيم انيس، ط٥، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٤

٦) الفروق اللغوية، ابو هلال العسكري، مكتبة القدسي.

٧) القاموس المحيط، الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، ابو القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ) تحقيق:الشيخ عادل احمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م

٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، ابو علي الفضل الطبرسي، ط١، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ٢٠٠٥م

١٠) معجم مقاييس اللغة، ابو الحسن احمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

١١) الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٩٨١م) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت-لبنان، ١٩٩٧م